الفروسة العربيـــــة

للأستاذ جميل قبعين

— ١ —

محاضرة قيمة ألقاها الميجر كلوب قائد قوة البادية فى شرق الأردن بتاريخ ٢٥ تشرين ثانى سنة ١٩٣٦ فى الجمعية الأسيوية الملكية فى لندن ونشرتها مجلة الجمعية فى عدد يناير سنة ١٩٣٧

تحمل كلمة الفروسية معاني مختلفة فى انكلترا وتوقظ فى أذهان الكثيرين منا شعوراً مبهماً وانطباعاً خيالياً عن فرسان بأسلحتهم اللامعة وملابسهم الجميلة الجذابة ، وقد نستعمل هذه الكلمة فى كثير من الأحيان للدلالة على احترام المرأة ، ولكن إذا ما رجعنا إلى الحقيقة وجدنا هذا الاتجاه فى التفكير عن الفروسية سطحيا وخياليا لأن الفروسية نشأت وانتشرت كنظام خاص في الحياة عند بزوغ فجر المدنية . ولكى أوضح ما أقصد باستعمال كلمة الفروسية يجب أن أرجع بكم إلى العصور الخالية عندما كانت موارد الرزق تنحصر فى الزراعة وتربية المواشى ، وكان الانسان فى انكلترا وأوروبا على العموم يستطيع أن يجمع بين العملين معا لأن جو هذه البلاد الرطب كان يهيئ كثرة الكلأ وخصوبة المرعى ، ولذلك كان بامكان المزارع أن ينصرف إلى أعمال الحرث والحصاد ، وفى نفس الوقت يقتنى المواشى التى ترعى بالقرب من مزرعته لكثرة الأعشاب . ولكن تطبيق هذه الطريقة فى تنظيم العمل كان متعذرا فى القارات الأخرى وعلى الأخص آسيا وافريقيا حيث تقل الأمطار وتعانى مساحات واسعة منها المحل والجفاف لقلة سقوط الأمطار وبطبيعة الحال تقل المراعي وتبعد المسافة بينها — ولذلك كان المزارع الذى لا يتمكن من ترك حقله غير واجد مرعى لأغنامه . وهكذا كان الجمع بين الزراعة والرعى غير ممكن . ولذلك بقى سكان تلك البلاد ألوف السنين منقسمين إلى قسمين متباينين الرعاة والمزارعين أو البدو والحضر وهكذا أوجدت طريقتا المعيشة بينهما تباينا فى الأخلاق وتباعدا فى المجتمع فتأصل العداء .

قد يستغرب الرجل الانكليزى فى هذه الأيام أن يجد عندما يزور البدو تشابها عظيما بين عاداتهم وبين عادات الفرسان الاوروبيين فى العصر الاقطاعى ، ولهذا ترون أنى استعملت كلمة «الفروسية» عنوانا لمحاضرتى .

وقد يكون غريباً أن تعلموا أنه لا توجد كلمة فى اللغة العربية للدلالة على الفروسية كنظام خاص مع العلم بأننا نرى البدو يعيشون بروح فرسان القرون الوسطى ، والسبب فى ذلك أنهم لا ينظرون إلى نظام معيشتهم كنظام يمكن درسه بل كحياة طبيعية ولما كانوا لا يعرفون القراءة لم يتمكنوا من درس أنظمة غيرهم من الأمم ، ولهذا لم يجدوا ضرورة لإيجاد اسم خاص لطريقتهم. فى الحياة . ولو وصفت الصفات المميزة للفروسية لمزارع أو حضرى من سكان هذه البلاد لأجابك على الفور أنك تتكلم عن حياة البدو. وعليه فإنى أرجو من حضراتكم أن تبعدوا المعنى الخيالي الذى يتصل بكلمتى الفروسية والفرسان لأنى أعنى باستعمال هذه الكلمة عادات البدو أى نظام الحياة اليومى ونظام الحكم الديمقراطى بينهم

قصيدة الأستاذ العقاد فى الجيبون دائرة معارف ثقافية ففيها من كل علم ومن كل فكر ، فهل لو صح هذا كان شعراً . والشعر من الوجدان وإلى الوجدان وماله وهذه اللفتات إلى ما هو عميق متكلف ؟

وهل لو صح هذا الوزن لشعر الشعراء واسعفتنا هذه المقاييس التى يتفضل بها الأستاذ قطب تكون قرّبنا الشعر من الطبيعة الصادقة والفطرة السليمة و الذوق الذى لا تشوبه شائبة النظريات العلمية القلقة ...

اللهم لا ، ثم لا . والحديث رجع إن شاء الله

(حيفا — فلسطين) محمد رفيق البابيدى
المدرس بمدرسة حيفا الثانوية الأميرية

حاشية : كان الأستاذ الطنطاوى قد التحق فى مدرسة دار العلوم العليا ولبث فيها قرابة الشهرين — على ما أذكر — ثم آثر أن يعود إلى دمشق ولعل الذاكرة خانت الأخ فنسى أن الأستاذ قطباً كان قيد خطوات منه فى حجرة الدرس

حياة البدو والمزارع

يمكننا عند دراسة أخلاق وطباع البدوى والمزارع أن نبدأ بدراسة وجهة نظر كل منهم نحو الحرب . تنحصر كل ثروة المزارع فى مسكنه وحقوله وأشجاره فإذا ما سلم أملاكه إلى عدو يصبح على الفورجائعاً متشرداً ، وهذه النتيجة المنتظرة تجبره على الاستماتة فى الدفاع إذا ما هوجم ، وفي نفس الوقت نرى أن الزراعة عمل مستمر يستوعب كل أوقات الفصول الأربعة بحيث لا يبقى له وقت يقضيه بالسفر والتنقل بحثاً عن المغامرة ، ولذلك تجده يدافع دفاع المستميت دون الاهتمام بقواعد الحرب أو بتطلب المجد الشخصى ، وحالة المزارع هذه تقوده إلى أن ينظر إلى الحرب نظرة الكراهية ، فاذا ما هوجم ترى أن همه الأول أن ينتصر بأسرع ما يمكن بطرق شريفة أو غير شريفة ، وبما أن غرضه الأسمى هو الدفاع لا المجد ، وبما أنه يقطن فى القرى نراه يفرض على كل شخص فى المجتمع أن يشترك فى الدفاع لكى يضمن السلامة والفوز . وهكذا يمكننا حصر نظرة المزارع إلى الحرب فيما يلى :

١ — الدفاع المستميت

٢ — كره المغامرات الحربية

٣ — التصميم على الفوز بطرق مشروعة أو غير مشروعة

٤ — فكرة خدمة المجتمع

أما نظرة البدوى للحرب فهى على العكس تماماً وذلك لأن ثروة البدوى هى الخيل والجمال والغنم وليست من الأملاك الثابتة كالبيوت والحقول والبساتين ، لذلك نراه غير مضطر لمقاتلة عدو قوى إلى الرمق الأخير بل على العكس قد يتمكن من انقاذ كل أمواله بتقهقر منظم سريع . وعلاوة على ذلك فان المواشى شىء مزعج فى الحرب إذ أنها قد تتشتت أو تذبح ولو كان صاحبها منتصراً فى الحرب . كل هذه الاعتبارات تشير إلى حقيقة واحدة وهى أن طريقة البدوى فى الدفاع ضد عدو قوى هى التقهقر السريع وليست الاستماتة فى الدفاع كما يفعل القروي

وهنا لا يسعنى إلا أن أتحول قليلا من البحث عن الحرب إلى السياسة . إن الفلاح يدافع عن بلده ويقاتل قتال المستميت دونها ولكنه إذا غلب على أمره خضع واستسلم إلى العدو تمسكا بقطعة أرض يتركها له غالبوه ، وإذا ما سمح له بالبقاء يدفع الضرائب الفادحة صاغراً ويتحمل أنواع الذل والاهانة . أما البدوى فاذا وجد نفسه محاطاً بعدو قوى استكان دون مقاومة وتظاهر بتقديم الخضوع إلى كبير الفريق الغالب حتى إذا ما رأي من عدوه غفلة رحل بسرعة إلى مكان قصى أمين حيث يصبح حراً طليقاً . وهكذا نرى أن البدوي رغم ضعفه فى الدفاع ذو نفسية استقلالية تصبو إلى الحرية وهو أوسع حيلة وأعز نفساً وأعظم كبرياء من القروى

وفى الهجوم أيضا تجد البون شاسعا بين البدوى والمزارع فان هذا الأخير مرتبط بأرضه وبأعماله المستمرة ، أما البدوى فقليل الشاغل كثير الفراغ وهو بسائق فطرته وطريقة معيشته معتاد ركوب الخيل والجمال وتحمل الأسفار البعيدة الشاقة ولذلك كانت المغامرات الحربية موضوع فخر وتسلية له وكانت الشهرة والمجد مطمعه فى الحياة ، لأن نظرة البدوى إلى الحرب لا تتجه لخدمة المجتمع نراه يتطلب فى حروبه المجد والفخر والقيام بالأعمال العظيمة التى تنيله الشهرة ، فالمجد والشهرة هما غايته من الحرب لا سلامة المجتمع .

إن أساليب الحرب فى نظر البدوى أهم بكثير من النصر وكسب المعركة ، والمجد بالتسابق بأعمال البطولة على أساليب الشرف هدفه الأسمى فى القتال . وقد نشأ عن ذلك أساليب وعادات معقدة ورثنا بعضها فيما نسميه الروح الرياضية . فالبدوى لا يجد من الشرف أن يهاجم رجلا نائما أو أقل منه سلاحا ، وهكذا ظهرت تقاليد أهم صفاتها تطلب المجـــد والشهرة وإثارة روح التقدير والاعجاب فى الآخرين باتباع أساليب الشرف . ولا يجد البدوى غضاضة فى الاعتراف ببطولة العدو إذا كانت أساليب الشرف والاستقامة رائد هذا العـدو فى الحرب . كما أنه ينظر بازدراء للقروى الذى يحارب بقصد النصر دون التمسك بأساليب الشرف .

توجد ناحية غير مستحبة فى طباع البدو الحربية وهى الانانية والحسد ، فالمحاربون البدو يحاربون لإظهار فروسيتهم ورجوليتهم وشجاعتهم الفردية بقدر الامكان ، وقد لا يشعر أحدهم بكراهية

نحو عدو بعيد ولكنه ينفجر حقدا إذا ما نافسه أحد رجال قبيلته بأعمال البطولة وسبقه بالشهرة . قد نرى نحن الأوربيين أن هذا أمر غير مستحب، ولكن الحقيقة أن هذه الصفة كانت من أهم الصفات الظاهرة لدى البناء الأوروبيين في العصر الاقطاعي ومع أنها صفة غير جذابة ولكنها إحدى صفات الفروسية .

معاملة المرأة

إن الشيء الثاني الذي يميز حياة الفروسية أو حياة البدو هو طريقتهم في معاملة المرأة، فالمزارع مرتبط بعمله الممل المنهك فلا ينتظر منه أن يشجع زوجته على التجمل والراحة في البيت بينما هو يقضي ١٢ — ١٣ ساعة يوميًّا في أعماله الزراعية ، ولذلك تجد أن نساء المزارعين كن دائماً خشنات المظهر لاشتراكهن في الأعمال الشاقة خارج البيت . ولربما أوجدت حياة المزارع الجافة فيه عقلية خاملة خالية من الجو الخيالي البهيج

ولكن نظرة البدوي إلى المرأة تختلف تماماً عن نظرة المزارع اليها لما ذكر فيما سبق من أن البدوي قليل المشاغل وغايته القصوى في الحياة المجد وإثارة الاعجاب . ومن الطبيعي أن الانسان عند ما يتطلب ميزة خاصة على غيره يتطلب أن تعترف له المرأة بتلك الميزة ، وأن إعفاء المرأة البدوية من الأعمال الجسمية الشاقة المنهكة جعلها تحتفظ بنعومتها ورشاقتها ، ومن الممكن أن فراغ وقتها أعطاها الفرصة الكافية للتزين والتجمل ، ولذلك بقيت جميلة مشتهاة أكثر من زميلتها القروية الخشنة

ينظر القروي إلى المرأة كوسيلة للخدمة والولادة وواسطة للربح . أما البدوي فيرى فيها مخلوقاً يجب العطف عليه والتغني به ويتخذها البدوي حكماً لتقدير أعماله . ومن المفيد أن نذكر أن المرأة البدوية بالرغم من كونها تعامل معاملة أحسن من زميلتها القروية ، فإنها لم تكن مساوية للرجل ، وأن التقدير والاعجاب اللذين كانا محيطين بها راجعان إلى اختلافها في التكوين والخلقة عن الرجل — فالرجل كان المحارب والحاكم، والمرأة هي الجمال . إن القروسية لا تعترف بمساواة الجنسين لأنهما مخلوقان مختلفان والمرأة لم تحاول أن تشارك الرجل في الحكم يوماً . وفكرة مثل هذه كانت غير مستحسنة من الطرفين

مزايا البدو الأخرى

إن طلاب المجد وحب الشهرة خلقا في البدوي مزايا أخرى أهمها الكرم والسخاء. يعتمد البدوي في حياته على قطعانه، وهي بطبيعة الحال عرضة للسلب والفقدان في كل لحظة ، وهذه الحال قد تجعل الرجل الغني الوفير الخيرات في القبيلة يصبح فقيراً معدماً في اليوم التالي — وفي نفس الوقت قد يسترجع ما فقد بغزوة ثانية موفقة يقوم بها ، ولذلك فان البدوي يشبه الأموال بالأوساخ العالقة باليد تأتي اليوم وتذهب غداً . إن حياة التنقل المستمر جعلت من الصعب على البدوي أن يحتفظ بكثير من ضروريات الحياة ، كما أن حبه للظهور وتعطشه للمجد كان لهما أثر كبير في أعماله القريبة من الخيال ؛ فهو مستعد دائماً لأن يبذل كل ما يملك أو يمنح بسخاء جميع ما غنمه في غزوة شاقة خطرة لكي يظهر بمظهر شائق . أما القروي فهو بعكس ذلك تماماً لأن حياة الشقاء التي يعيشها واستقراره وتمكنه من التوفير أسباب كافية لجعله مقتراً

إن إحدى النتائج التي أوجدها الكرم هو حسن الضيافة . وإني لا أجد ضرورة لأن أقول بأن كل بدوي يملك بيتاً مفتوحاً أو بالأصح خيمة مفتوحة للضيوف في جميع ساعات الليل والنهار ، وتكون الخيمة مقسمة إلى قسمين أحدهما للعائلة والآخر للضيوف. ولقد جرت العادة أن يضيف البدوي ضيفه ثلاثة أيام قبل أن يسأله من أين أتى وما هي مهمته

وهذا الكرم يصل إلى الفقراء من القبيلة ، إذ أن من عادات البدو ألا يهملوا شيخاً ولا فقيراً ، ولا يمكن لإنسان يعيش بين البدو أن يموت جوعاً . وكثيراً ما نرى شيخ القبيلة يوزع بعد عيد أو وليمة اللحم والأرز بنفسه أو يرسله إلى بيوت المسنين والأرامل . ويمكننا تلخيص صفات البدو فيما يلي :

١ — السعي وراء الشهرة في الحرب بالقيام بأعمال البطولة

والمغامرات الفردية دون الاهتمام بربح المعركة

٢ — تقدير المرأة واحترامها لأنوثتها واتخاذها وسيلة للتسلية والتمجيد وإن كان لا ينظر إليها كمساوية للرجل

٣ — وجود دافع داخلي في البدوي يدفعه إلى القيام بأعمال البطولة والكرم حتى تكون أعماله هذه أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة في أكثر الأحيان

٤ — الكرم وحسن الضيافة الحاتميان ويرجع سببهما أولاً إلى عدم الاطمئنان إلى بقاء الممتلكات بصورة مستمرة، وثانياً إلى حب التفوق والمجد اللذين يسعى البدوي إلى تحقيقهما في الحرب أيضاً

ولكي أشرح هذه الصفات الأربع سأستشهد ببعض قصص تصف لنا الفروسية العربية. والقصص التي من هذا النوع أكثر من أن تحصى. وقد أشاد بذكرها الشعراء وامتلأت بأخبارها كتب الأدب وتغنى بها العشاق والمطربون. ولقد كان هذا شأن التروبادور Troubadour في القرون الوسطى في أوروبا، واسمهم هذا مشتق من فعل طرب العربي. وقد كانوا يتجولون في البلاد مثيرين الحماسة برواية قصص الأبطال والأحاديث الغرامية

وسأقتصر على بعض القصص والحكايات كما أني سأذكر تجاربي الخاصة

« يتبع » جميل تبعيني

ظهر حديثاً

هكذا أغنى

ديوان الشعر الجديد

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

ثمن النسخة الواحدة ١٠ ص

يطلب من صاحبه ومن جميع المكاتب الشهيرة بالقاهرة

ماضي القرويين وحاضرها

للأستاذ عبدالله كنون الحسني

— ١ —

(جامع القرويين)

كتب الأستاذ على الطنطاوي في العدد (٢٣٦) من «الرسالة» بمناسبة إظلال العيد الألفي للجامع الأزهر يقترح على أبناء جامع القرويين والزيتونة والنجف أن يتحدثوا لقراء « الرسالة » عن شيء من تاريخ هذه المعاهد وما ساهمت به في خدمة الثقافة الاسلامية وفنون المعارف الأخرى، كما سيتحدث أبناء الأزهر في ذلك العيد القريب عن أزهرهم ويقومون بإحياء ذكراه الخالدة المحفوظة في ضمير الزمان ما بقي من يراعى الجميل من بني الانسان. وذلك لأن كثيراً من الناس يتشوفون إلى معرفة أحوال هذه المعاهد والأطوار التي اجتازتها منذ تأسيسها إلى الآن، وسيبلون عطشهم بالنسبة إلى الأزهر؛ أما بالنسبة إليها فسيبقون أعطش مما كانوا، لأن الذكرى تبعث الذكرى. فلا أقل من أن يحظوا ببلالة من العلم في كلمة أو كلتين عن تلك الجامعات التي غبرت هي والأزهر مدى أجيال تشع على العالم أنوار العلم والمعرفة وتتدرج بالفكر الانساني في مدارج النمو والارتقاء.

وقد استحسنا اقتراح الأستاذ ولبثنا مدة ننتظر من يستجيب له ويتحفنا بالحديث عن أي جامع كان من تلك الجوامع فما ظفرنا